

وأن قتالهم فريضة واجبة، حتى لا يبقى على ظهر الأرض منهم أحد، أو يعترفوا عل أنفسهم بالكفر ثم يعودوا إلى الإيمان، ولكن هذا الرجل مع عقيدته تلك، ومع خطورة شأن الحجاج في قتالهم وحربهم، يلتزم جانب الوفاء، ويعتصم في شأن الحجاج – الذي أحسن إليه، وبأدله معروفاً بمعروف – بهذا الخلق الكريم، ويحسن الدفاع عن رأيه، والتعبير عن حجته بهذا الشعر القوي النابع من قبله، الممثل لفطرته الصافية الصادقة، فتراه ينقل السامع إلى صورة مجسمة، يقف فيها هو شاهراً سيفه على الحجاج بهذه اليد التي كان في استطاعته – لو شاء – أن يبتريها ويبتري من الوجود صاحبها، ولكنه وهبها السلامة، ومن عليها وعلى صاحبها باحياة، فكانت له بذلك مولاة، وكان لها سيذا مالكا، ثم ينقل سامعه كرّة أخرى إلى صورة أخرى يتخيلها الضمير الحي، والخلق الكريم؛ صورة امرئ قد طوق عنقه بجميل، فيأتي إلى صانع هذا الجميل، ويجزيه عن إحاسنه سوءاً، وعن مروءته وعرفانه غدرا ونكرا، فيقف أراءه في الصف قد تسربل بالخزي، وتجلل بالعار، ولجلج الكلام في فيه، فلا يستطيع خطاباً، ولا يحير جواباً، بينما قرنه قد وقف رافع الرس، شامخ الأنف، في هالة من المروءة وانبل، تحتج له فعلاته، ونذود عنه مكارمه، ثم ينقل سامعه أخيراً إلى هذه الصورة الثالثة، صورة الأرقام وقد قامت مجالسهم وانفضت، واجتمعت جموعهم وتفرقت، على حديث هذا الغادر الناكث، الذي غرست لديه نخلات المعروف، فصريها معدنه الخبيث حنظلاً نكداً.

لا شك أن الشاعر بلغ بأبياته الثلاثة أقصى ما يبلغه مصور ماهر، أو مثال قدير في هذا المجال، وأنه إن لم يكن أرضي فائده قطرياً وأحسن الاعتذار إليه، فقد أرضي الوفاء، وكرم وجه الخلق، ودل على معدن في نفسه كريم، والتمس لنكوصه – إذا سمي هذا نكوصاً – عذراً مقبولا مستساغاً في شرعة الإنصاف.

ولقد كان هؤلاء الخوارج آية في البيان، ومفخرة من مفاخر البلاغة العربية، ذلك بأنهم يقولون من قلوبهم، ويعبرون عن دوائر نفوسهم، ويصورون المعاني